

في مصر الاسموية

تنازع البقاء بين العلوية، والعثمانية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

الأستاذ بكلية الآداب

كان من العوامل الخارجية التي نازعت سلطان العلويين في مصر وجود حزب الأمويين في الشام ، وعلى رأسه معاوية ابن أبي سفيان الذي أخذ يعمل على سايخ مصر من على بن أبي طالب . وسار معاوية إلى هذه البلاد ونزل بسلطنة من كورة عين شمس (في شوال ٣٦ هـ) ، فخرج إليه ابن أبي حذيفة وأنصاره ليمتنوه ، فبعث إليه معاوية يخبره أنه لا يريد قتالاً وإنما يريد أن يدفع إليه رهوس قتلة عثمان ، فأبى ذلك عليه ، فبعث معاوية يطلب إليه تبادل الرهائن والودائع ، كي يضمنا جميعاً أن يكف الفريقان عن الحرب ، فقبل ذلك ابن أبي حذيفة .

ولعل ابن أبي حذيفة لم يظن إلى ما كان يرى إليه معاوية ، وأن هذا الطلب لم يكن في حقيقة الأمر إلا مكيدة حاكسها كها دهاؤه ، فاستخلف على مصر رجلاً من أنصاره ، هو الحكيم بن الصلت ، وخرج في الرهن هو وغيره من قتلة عثمان ، ثم سجنهم معاوية في « لد » من أرض فلسطين ، وسار إلى دمشق ، فهربوا من سجنهم ، إلا واحداً أبي الفوارس ، فتمتعهم عامل معاوية وقتلهم ، وكان من بين القتلى محمد بن أبي حذيفة . (ذو الحجة ٣٦ هـ) وذلك بمد قتل عثمان بسنة كاملة (١)

ولسنا ندرى كيف يملل خروج ابن أبي حذيفة ، وهو رأس شيعة علي في مصر وغيره من أنصار العلويين وزوجه بنفسه في مضامير هذا الرهن . بيد أن المصدر التاريخي الذي نعول عليه في هذه المسألة هو كتاب « الولاة » للكندي (٣٥٠ هـ) أقدم مؤرخي مصر بعد ابن عبد الحكم (وعنه أخذ غيره من المؤرخين المتأخرين ، وأهمهم ابن دقاق والقريزي وأبو الحسن والسيوطي) لم يذكر لنا السبب الذي حدا بابن أبي حذيفة وأنصاره إلى الذهاب في الرهن ، بل ولم تذكر المراجع كلمة واحدة عن رجال معاوية الذين دخلوا في هذا الرهن ، الذي لم

(١) الولاة للكندي ص ١٩ - ٢٠ والمخطوط للقريزي ج ٢ ص ٣٣٦

وأنت يا فلسطين ، ماذا أقول وكل حرف من اسمك المطهر يفجر في قلبي نبعاً جديداً من الأسي ؟ أرثي لحظك المنكود أم أرثي أرضك التي لم ترع حرمة تقدسيها ؟ أم أنوح على ميثاق الضحايا تقدمينها كل فجر على مذبح الشرف والحرية ؟ أم هل أشق للفضاء بصيحات أئدب فيها قراك التجربة ومنازلك التهمة وحفك المألوف ؟ كلا والله ليس البكاء والهويل بمنقذك .

أي أندلسنا الجديدة: إن أبناء الأندلس القديمة لم يخجلوا بالندب والنواح والاستئانة والصباح ، ولكنهم مع ذلك خسروا بلادهم وأخرجوا عن دينهم لأنهم اكتفوا بأفات الألم واستسلموا لليأس وسلموا قيادهم من يجهل معنى الاخلاص . أما أنت فقد خرجت الآن من دور البكاء والاستسلام والتسليم ، وما عادت تجوز عليك خدع المترجمين من أبنائك طلاب السلطة والسال ، وقد دخلت أخيراً في دور الجهاد المبارك الذي أعلنه الخالصون من أبنائك للبررة — أبناء الشعب المنج ذوى الايمان القوى والمقيدة الراسخة والأرض الملوبة .

لجاهدى وناضلي يا فلسطين واعلى أنك قطعة ثمينة من الوطن الأكبر الذي لا يزال فيه بقية من الخلق الذي كان يتحلى به فتیان محمد (ص) الأولين . وهذه البقية الباقية إن كانت ضئيلة اليوم فلن تبقى ضئيلة إلى الأبد فانها والله لكالجزيرة التي خلفها النيران في اوماد وظن للناس أنها منطفئة، حتى إذا ما هبت العاصفة أطارت الرماد وعمرت الجزيرة ونفضت فيها الحياة فاحمرت ثم اندلعت منها ألسنة اللهب واتصلت بما حولها وتوسعت دائرة الاشتعال حتى أصبح إخمادها في حكم المستحيل . وهما هي ذى عواصف الاضطهاد والارهاق تكنتفنا من كل جانب وهي كقنبلة بإذكاء نار الحمية فينا وإعادة ذلك المهد الذي دكت فيه هروش الأكاسرة والقياصرة على يد فئة قليلة يقودها يدوي أمي خرج من قلب الصحراء القفرة .

وهذا الأمل الجديد الذي أبشرك به يا فلسطين لقد ولده في قلبي عمل حكمة أحد فتیان محمد (ص) . فأرسل ناظريك إلى ما وراء الصحراء وترقي — مثل — خروج القائد المنتظر في بلاد (حكمة) ومن جبل حكمة .

« بغداد — دار انباء الرضية » على هير الرابى

يكن في حقيقة الأمر - إن كان قد وجد فعلا - على قدم المساواة بين الفريقين المتخاصمين .

وقد يكون معاوية رأى أنه مع استطاعته فتح مصر أن الوقت لم يحن بعد لهذا الأمر ، إذ لا بد له من الاحتفاظ بقوة كبيرة لمنع مناوأة العلويين ، لأن جميع أهل مصر يبدوا أن أبي حذيفة إلا نفراً يسيراً اتصروا للممان^(١) ، فعول معاوية على استحصال شأفة رموس قتلة عثمان ليتمكن من حرب علي ثم يستولى على مصر متى تهيأت له الفرصة بعد أن يوقع بجيش علي .

وبعيد جداً أن يكون ابن أبي حذيفة قد اضطر إلى قبول طلب معاوية ، لأن الرجل لم يبال بخصمه . بذلك على ذلك أن معاوية لما بعث إلى ابن أبي حذيفة يطلب منه أن يدفع إليه عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وها رأس قتلة عثمان امتنع ابن أبي حذيفة وقال : لو طلبت منا جدياً رطب السمرة بمئان ما دفعناه إليك^(٢) » وهذا يحملنا على الظن بأن معاوية لجأ إلى هذه الحيلة حين لم يجد جهوده الحربية مع ابن أبي حذيفة نفعا .

ولما بلغ علياً قتل ابن أبي حذيفة ولى مصر قيس ابن عباد الأنصاري ، فدخلها في ربيع الأول ٣٧ هـ ، وكان من أهل الرأي والناس ، واستمال إليه الممانيون المقيمين بمخربتا (شرق الدلتا) وأحسن إليهم ، وكان أهل مصر إلا هؤلاء (وعددهم زهاء عشرة آلاف) مع علي بن أبي طالب .

وقد حاول معاوية وعمرو بن العاص التلب على مصر ، فاستنح قيس هذا على معاوية ، فلم يكن بدّ إذاً من إعمال الحيلة لإخراجه ، فأذاع معاوية أن قيساً من شيعة عثمان وأن كتبه تأتيه . فلما سمع علي بذلك ، أمر قيساً بمخاربة الممانيين بمخربتا ، فأجابته بأنه آمنهم على أنفسهم لئلا من جانبهم ، لأن فيهم كثيرين من وجوه أهل مصر وأشرفهم ، فعزله علي وولي مكانه الأشتر بن مالك لأنه ثقل عليه ، فأبعد عنه^(٣) .

على أن والى مصر الجديد لم يكده يصل للنازم (وهي السويس الحالية) حتى شرب شربة من المسل لا يبعد أن يكون قد دس له فيها السم فمات ، فولى مصر بعده محمد بن أبي بكر^(٤) ، فأظهر

(١) الكندي : شرحه ص ١٧

(٢) شرحه ص ١٩

(٣) الولاة والنضاة للكندي ص ٢٠ - ٢٢

(٤) كان دخوله مصر في منتصف رمضان سنة ٣٧ هـ .

الخيلاء ، وأساء إلى الممانيّة ، وبعث إلى رأسهم معاوية بن حذيفة يدعوهم إلى بيعة على ، فلم يجبه إلى طلبه ، فهدم دورهم ، ونهب أموالهم ، وأذى أولادهم ، وحبسهم ؛ فموتوا على حربه ، ولكن ابن أبي بكر رأى أن يتلافى ما قد يجزر الاشتباك في حرب معهم فصالحهم ، ثم سيرهم إلى معاوية فبقوا هناك إلى أن انتهت موقعة صفين وعقد التحكيم .

ولم يكن معاوية بالذي يفتخر عن استخلاص مصر وانزعاجها من علي . وزحف عمرو بن العاص على رأس جيش من أهل الشام ، وحجى القتال بين الفريقين ، فوتمت الهزيمة على أهل مصر ، ودخل عمرو الماطا واختفى محمد بن أبي بكر ، فبعث معاوية بن حذيف عدوه القديم الميرون والأرصاد ، حتى اهتدوا إلى مكانه ، فقتله ابن حذيف ثم جعله في جيفة حمار ، وأحرقه بالنار وكان ذلك في صفر سنة ٣٨ هـ .

وبذلك خلصت مصر لمعاوية ، فولاهها عمرو بن العاص ولاية مطلقة ، وجعلها له طعمة بعد النفقة على جندها ، وما يحتاج إليه من ضروب الإصلاح . ولما قتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ هـ ، وتحولت الخلافة إلى بني أمية ، أصبحت الأجناد وأهل الشوكة في مصر شيعة عثمان ، بيد أن بقية المصريين ظلوا يشايرون علي بن أبي طالب وأهل بيته ، فظل المداء قائماً بين الحزبين في هذه البلاد (وفي غيرها) طوال عهد الأمويين ، ووز الصدر الأول من أيام العباسيين .

عن إبراهيم حسن

لهض الككبك

كتب علي مصر عظيم الفاعلة
لكن لسان بركتك المفضل علي
تسز منه مجانا اذا ارسلت هذا
الأعلاون - مع من طلبات الى
جلالهم بوردوين سن ٢١٠٥ بصر